

Humanism and Authoritarian Frameworks in the Novel Spring of Cordoba by Moroccan Writer and Thinker Hassan Aourid

Suham Hassan Al-Samarrai

Department of Arabic Language - College of Arts - Samarra University

Iraq

Email: hassansiham37@gmail.com

ABSTRACT

The human and moral dimension is an important pillar of narrative work, whether through the overall comprehensive idea, or the story taken from reality, even if it is imaginary.

Despite the multiple meanings of the term humanism throughout the ages, the elevation of human thought, equality, tolerance, justice, dream, forgiveness, transcendence, and the predominance of the spiritual and psychological aspect over the biological, are its most important features. The Moroccan writer and thinker (Hassan Aourid) sought to establish and highlight the human dimensions in his novel (Spring of Cordoba). My research focused on exploring the most important human values and dimensions such as: loyalty, forgiveness, sympathy, dream, pain, death, and others included in the novel (Spring of Cordoba) and analyzing them according to the descriptive analytical method. The research reached many results, the most important of which is: This novel sought to highlight the human dimensions and moral, social and intellectual values in a clear and explicit manner through the active characters in the novel. Keywords: Humanism, Power, Cordoba, Narration, Tale

النزعة الإنسانية والأطر السلطوية في رواية ربيع قرطبة للكاتب والمفكر

المغربي حسن أوريد

سهام حسن السامرائي

قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة سامراء

العراق

Email: hassansiham37@gmail.com

الملخص:

يُعد البعد الإنساني والأخلاقي ركيزة هامة من مرتكزات العمل السردية ، سواء من خلال الفكرة الكلية الشاملة ، أو الحكاية المأخوذة من الواقع ، وإن كانت متخيلة.

و على الرغم من تعدد دلالات مصطلح النزعة الإنسانية على مر العصور، إلا أن إعلاء الفكر الإنساني والمساواة والتسامح والعدالة والحلم والعفو والتسامي وتغليب الجانب الروحي والنفسي على البيولوجي، أهم ما يميزها. وقد سعى الكاتب والمفكر المغربي (حسن أوريد) إلى ترسيخ وإبراز الأبعاد الإنسانية في روايته (ربيع قرطبة). تركز بحثي على استكشاف أهم القيم والأبعاد الإنسانية من مثل: الوفاء والعفو والتعاطف والحلم والألم والموت وغيرها التي تضمنتها رواية (ربيع قرطبة) وتحليلها وفق المنهج الوصفي التحليلي. وتوصل البحث إلى نتائج عديدة من أهمها: أن هذه الرواية سعت إلى إبراز الأبعاد الإنسانية والقيم الأخلاقية والاجتماعية والفكرية بشكل واضح وصريح من خلال الشخصيات الفاعلة في الرواية.

الكلمات المفتاحية: النزعة الإنسانية، السلطة، قرطبة، السرد، الحكاية)

مقدمة:

النزعة الإنسانية حركة فلسفية وأدبية ظهرت في عصر النهضة في أوروبا، اشتركت فيها العديد من المذاهب الفلسفية والأخلاقية والأدبية والعلمية، تتخذ من الإنسان مركزاً لاهتماماتها بعده أساس المعرفة وتدعو إلى تحرير عقل الإنسان من قيود التقليد الأعمى وانفتاحه على التفكير الحر، ورفع الوصاية عن الإنسان كي يملك الجرأة والقدرة في استعمال العقل. وإعادة القيمة الحقيقية للفرد فيصبح الإنسان مرجعية نفسه ومصدر المعرفة، و تحييد سلطة الكنيسة و هيمنتها الفكرية و الإيمان بالفرد (الإنسان) وإحلاله ضد اللاهوت ليمارس حريته وحقوقه و احترام العقل وتفضيله على المقدس الديني، مهما كان هذا المقدس، فلا سلطة أو غالب أو خضوع أمام سلطة العقل، والإيمان بأهمية الإنسان ودوره الكبير في هذا العالم والوجود، وبذلك ينشئ الأفكار بعيداً عن النص الديني وبعيداً عن الانغلاق الفكري، التي كانت تكبل الفرد داخل فضاءات الغرب فترة العهود الوسطى. التي صنعها التعصب الديني حول العقول، وحرمانها من العمل والبناء والإبداع، والثقة بقدرته والاعتداد بنفسه، فالإنسان عندهم محور الكون ومركزه والمبدأ والغاية وأكبر قيمة في الوجود. فالنزعة الإنسانية تنطلق من الإنسان وإلى الإنسان وهو ما قام على أساسه عصر النهضة في أوروبا في القرنين الخامس و السادس عشر الميلاديين، إذ بدأ التحول في تلك الفترة من الدين إلى العلم، والعداء ضد الكنيسة فأصبح العقل مكان الدين. وبالتالي رفض فكرة التوسط بين الله والإنسان وجعل العلاقة مباشرة دون أي وساطة من أي جهة دينية كانت. على أن النزعة الإنسانية ليست شأن وامتياز أوروبي إذ أنها ليست وليدة عصر النهضة أو القرون الوسطى؛ بل ظهرت في الحضارة العربية والإسلامية قبل أن تظهر في الحضارة الأوروبية بعدة قرون.

فالقُرآن الكريم يُعد منبعًا ثريًا وصافيًا ومتجددًا للنزعة الإنسانية، إذ توجه القرآن منذ يومه الأول إلى الإنسان من حيث هو إنسان؛ بعيدًا عن أي اعتبار للونه أو لغته أو جنسه أو عرقه دينه أو طائفته و سعى إلى إبراز الإسلام دينًا إنسانيًا يعتمد العقلانية وحرية الاختيار لكن ربما يكون للغرب الفضل في تطوير المعرفة بها ولفت الانتباه إليها .. فالإنسان له مكانة مركزية واضحة في القرآن الكريم، والله سبحانه وتعالى أعطاه صفة الخليفة في الأرض ، وأشار إلى هذه الصفة ببيان واضح وصريح كقوله تعالى: ((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة)) البقرة 30 وقوله تعالى: ((وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض)) الأنعام 165.

وهناك سورة كاملة باسم (الإنسان)، كما بدأ بكلمة (اقرأ) حاثًا على طلب العلم ، واختتم بكلمة (الناس) في سورة (الناس) .

وقول الرسول محمد (صل الله عليه وسلم) في حجة الوداع (يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب)¹ . (لا فضل لعربي على عجمي ، ولا أعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى)² .

وبهذه الصفة تحددت نظرة الإسلام الشاملة للإنسان ذاتًا وقيمة ووظيفة، الرؤية التي رفعت الإنسان إلى مرتبة أعلى في العالم، وأعطته مكانة مركزية في الكون كله، ولا توجد منزلة أرفع وأسمى من أن يكون الإنسان خليفة الله في الأرض .

وذاب في ميزان العدالة في التشريع الإسلامي، الجنس واللون و اللغة والطائفة ولم يبق فيه غير شيء واحد؛ وهو الحقيقة الإنسانية المطلقة. فالناس مهما اختلفت أجناسهم وإثنياتهم وبيئاتهم ، ولغاتهم يتمتعون في نسق واحد من العدالة والحرية والكرامة والإنسانية، فالإسلام يدعو إلى التعايش مع الآخر المخالف ويطمح إلى إقامة أخلاق تعم الإنسانية جمعاء، قائمة على المحبة والرحمة واليسر، والتآخي والمساواة والدليل على ذلك ما ضمت حضارة الإسلام من تنوع اجتماعي وعرقي وفكري وتعدد في الملل والنحل؛ وظهرت تلك النزعة في بعض النصوص والمراسلات والمعاهدات التي دونها بعض الخلفاء الراشدين ، ومنها قول أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) لـ (عمرو بن العاص) ((متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا))³ .

وقول الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) : ((الناس صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)⁴ .

و ازدهرت النزعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وظهرت بقوة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي تمحورت حول الإنسان وقضاياها الحياتية، وقد برز في هذه الفترة عدة كتاب منهم (الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد) بما وثق الاعتقاد بأن هذا الجهد المعرفي للعرب والمسلمين يمثل نزعة فكرية خاصة جدًا على الرغم من أنها لم تمتد لفترة طويلة بعد تشبع المسلمين بالفكر الإغريقي وفلسفته القديمة.

وتتلخص روح النزعة الإنسانية التي أسسها فلاسفة الثقافة العربية في أنها تقوم على ((حق الإنسان في أن يكتشف بنفسه حقائق عالمه الدنيوي، وأن يربط هذا الاكتشاف بغايته في تحقيق حريته وسعادته في هذا العالم دون الانفكاك عن عالمه العلوي، الذي يمدّه بالقوة الروحية والقيم الأخلاقية والتكريم والاستخلاف في الأرض))⁵.

وفي مقالة في الأخلاق منسوبة ليحيى بن عدي بعنوان : حب الإنسانية يقول فيها : ((ينبغي لمحِب الكمال ... أن يُعوّد نفسه محبة الناس والتودد إليهم ، والتحنن عليهم ، والزلفة منهم، والرحمة لهم فإن الناس قبيل واحد متناسبون ، تجمعهم الإنسانية ، وتحلُّهم قوة إلهية هي في جميعهم وفي كل واحدٍ منهم، وهي النفس العاقلة. وبهذه النفس صار الإنسان إنسانًا، وهي أشرف جزئي الإنسان اللذين هما النفس والجسد.

والإنسان بالحقيقة هو النفس العاقلة ، وهي جوهر واحد في جميع الناس ، والناس كلهم بالحقيقة شيء واحد، وبالأشخاص كثير. وإذا كانت نفوسهم واحدة - والمودة إنما تكون بالنفس - فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين ، وذلك في الناس طبيعة لو لم تقدّم النفس الغضبية ، فإن هذه تحب لصاحبها التروؤس فتعود صاحبها الكره والإعجاب والتسلط على المستضعف واستصغار الفقير، وحسد الغني وذو الفضل، فتنشب من أجل هذه الأشياء العداوات وتتأكد بينهم البغضاء ، فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية وانقاد لنفسه العاقلة ، صار الناس كلهم أحابًا))⁶.

إن اختلاف الحضارتين العربية والغربية في أصول النشأة والمقومات يضعهما على طرفي نقيض في أثناء الكشف عن النزعة الإنسانية عند كل منهما ، فالتباين بين الأصول المادية للحضارة الغربية والأصول للحضارة العربية لا بد أن يترك أثره العميق في تكوين النزعة الإنسانية لديهما، فإذا كانت إنسانية الغرب قد نهضت على أركان حضارة مادية ، فهذا يعني أن الحضارة العربية أنتجت نزعة إنسانية رُضعت لبانها من الأديان الروحية القديمة والتعاليم الأخلاقية كالإبراهيمية والزرادشتية والمانوية وغيرها ،

وشبّت على يد الدين الإسلامي مشكاة النزعة الإنسانية العربية . وعلى هذا فـلعلّ الاختلاف سيبدو جلياً في جوهر النزعة الإنسانية ، أي في القيم .

فالإنسان في إنسانية الغرب له الحرية المطلقة في خلق قيمه ، أما الإنسان في إنسانية الشرق فيستمد قيمه من العالم الروحي والتعاليم الأخلاقية الروحية ، ويكون إنسانياً خالصاً حين يلتزمها في تعامله من أخيه الإنسان. وتبقى مركزية الإنسان في الإنسانية العربية كما في الغربية ، ولكن مع فارق مهم ، فالإنسان ممجد ومركز الكون ولكن ليس لأنه الإله، بل لأنه خليفة الله في الأرض ليعمرها، ولأنه مظهر الصفات الروحية السامية دون الكائنات الأخرى ، فالإنسانية العربية لا توصل الإنسان إلى مرتبة الإلهوية لأنها روحية بخلاف إنسانية الغرب .

ومثلما مجدّت النزعة الإنسانية الغربية العقل إلى حد العبادة فإن تلك السمة أيضاً برزت في الإنسانية العربية، لأن العقل الإنساني سبيل إلى التفكير في ماهية الإنسان وصفاته وأخلاقه ومشكلاته ، وهو من ثم سبيل إلى سعادته دون مغالاة في تمجيده وتقديسه، ودون تناقض بين الروح والعقل ، ذلك أن صانع الروح والأخلاق هو ذاته واهب العقل للإنسان . ومن هنا اتخذت النزعة الإنسانية صوراً عدة على فترات زمنية مختلفة، فمرةً ظهرت في الفلسفة والتفكير العقلي، ومرةً أعادت إلى الروح بهاءها، وإلى العاطفة جذوتها ولمعت في التصوف، وكثيراً ما جمعت الأمرين معاً وتبدّت في الأدب دون أن تغيب عن الميادين الأخرى⁷.

وعلى الرغم من تعدد دلالات هذا المصطلح على مر العصور، إلا أن إعلاء الفكر الإنساني والمساواة والتسامح والعدالة والحلم والعمو والتسامي وتغليب الجانب الروحي والنفسي على البيولوجي، أهم ما يميزها .

وإذا نظرنا إلى أدبنا العربي باحثين عن النزعة الإنسانية فيه قديماً وحديثاً ، نجدها ظاهرة في النص الجاهلي القديم. من ذلك ظاهرة احترام الخصم وتقدير إنسانيته ومنزلته بغض النظر عن العداوة القائمة ، وهذا ما نجده في بعض القصائد المسمى (المنصفات) ، وهي الأشعار التي يشيد فيها الشاعر بقوة الخصم ومكانته بعيداً الاستعلاء والتشفي ... فعمر بن كلثوم مثلاً ينظر إلى خصمه نظرة احترام ومساواة يقول⁸ :

كأنّ ثيابنا منّا ومنهم خُضِبَ بأرجوانٍ أو طُليْنَا

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريقٌ بأيدي لا عينا

من ذلك الدعوة إلى تقوية وتمتين العلاقات الأسرية بين الأهل والعشيرة ومحاولة مد جسور الصلّة من أجل إدامتها ، والترغيب في التمسك بها وجعلها دعامة من دعائم حياتهم، كانت تعد من أهم أسباب الاستقرار وسبل الرّاحة النفسيّة لأبناء المجتمع.

إنّ هذا الفهم النفسي لطبيعة هذه العلاقة، ومعرفة ما يتولد ذلك يسلب الراحة ، ويورث الهم والغم ، كما يقول: مالك بن المنذر⁹، وهو يوصي أبناءه

((يا بني... ألا إنّه لا راحةً لقاطع القرابة))

ومن ذلك الدعوة إلى إقامة العدل بين الناس . لقد كان العربي مدركاً أنّ الحياة لا تستقيم والنفوس لا تسعد إلا بالعدل، لذلك حث عليه ودعا إلى العمل به، فهذا عامر بن حرب ذي مقار المعروف ب (ذي حوال) يوصي إخوته وولده بأن ينصفوا الناس كي ينصفوا، وأنّ يعدلوا فيما يقضى إليهم كي ينالوا الحمد والثناء قائلاً¹⁰:

(وأنصفوا الناس تُنصفوا واعدلوا فيما يقضى إليكم من أموركم تُحمدوا) .

ولعل الصبر من أكثر القيم التصاقاً بذات العربي وأكثر قرّباً من نفسه، على الرغم نسبة دوافعه أحياناً إلى مؤثرات البيئة العربية القاسية التي نشأ وعاش فيها. وأجل العربي هذه الفضيلة ، واهتم بها وبلغ من اهتمامه بها إلى حد الايحاء بها والحفاظ عليها؛ لأنه آمن أنّ عظام الأمور لا تدفع إلا بالصبر كما يرى ذلك جابر بن مالك الكلبّي وهو يوصي بنيه وقومه، إذ يقول¹¹:

(أوصيكم... بالصبر تدفع العظام)

واستمرت هذه النزعة خلال العصور الإسلامية المختلفة في مجال الأدب، وتطورت واكتسبت إضافات جديدة من القيم الإسلامية ، ومن التطور الحضاري الذي بدأ يظهر مع ظهور الدولة الإسلامية واستقرارها.

في تعريف السلطة :

1- المدلول اللغوي : ورد الحديث في معاجم اللغة العربية عن معنى كلمة ((السُّلْطَة)) في مادة ((سَلَطَ)) ، فيقال في اللغة : سَلَطَ يُسَلِّطُ سَلْطَةً وَسَلْطَةً . و ((السَّلْطَةُ)) : القَهْرُ¹² ، وقيل : أي أطلق له السلطان والقدرة. و ((سَلَطَهُ عَلَيْهِ)) : أي مَكَّنَهُ مِنْهُ وَحَكَّمَهُ فِيهِ . و ((تَسَلَّطَ عَلَيْهِ)) : تَحَكَّمَ وَتَمَكَّنَ وَسَيَّرَ ، ومنه : تَسَلَّطَ الْقَوِيُّ عَلَى الضَّعْفَاءِ : تَغَلَّبَ عَلَيْهِمْ وَقَهَّرَهُمْ . و ((التَّسْلِيطُ)) : التَّغْلِيبُ وَإِطْلَاقُ الْقَهْرِ وَالْقُدْرَةِ، يُقَالُ : سَلَطَهُ اللَّهُ فَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ ، أي جَعَلَ لَهُ عَلَيْهِمْ قُوَّةً وَقَهْرًا ، وفي التنزيل العزيز :

(ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) (النساء 90) . و (السلطان من كل شيء) : شدته وحده وسطوته، ومنه اشتقاق السلطان والسلطان: فُدْرَةُ الْمَلِكِ وَفُدْرَةٌ مَن جُعِلَ ذَلِكَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَلِكًا ، كَقَوْلِكَ قَدْ جَعَلْتَ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى أَخْذِ حَقِّي مِنْ فُلَانٍ ، وَالسُّلْطَانُ أَيْضًا : الْقُوَّةُ وَالْقَهْرُ وَالْعَلْبَةُ ، وَالْفُدْرَةُ وَالْمَلِكُ وَالسُّلْطَانُ ، وَالسُّلْطُ وَالنَّعْلُبُ ، وَالنَّمَكُنُ وَالنَّحْمُ وَالسَّيْطَرَةُ¹³ .

2- يمكن القول إن ((السُّلْطَةُ)) في معناها الاصطلاحي تعني ((قدرة شخص على فرض إرادته على الآخرين أو التأثير فيهم))¹⁴ ، أو هي ((القوة الطبيعية أو الحق الشرعي في التصرف وإصدار الأوامر في مجتمع معين ، ويرتبط هذا الشكل من القوة بمركز اجتماعي يقبله أعضاء المجتمع بوصفه شرعيًا ، ومن ثم يخضعون لتوجيهاته وأوامره وقراراته))¹⁵ . أما جميل صليبا فقدم تعريفًا للسلطة على النحو الآتي السلطة في اللغة القدرة على الشيء ، والسلطان الذي يكون للإنسان غيره ، ولها عدة معانٍ¹⁶ :

1- السلطة النفسية : ويطلق عليها اسم السلطان الشخصي ، أي قدرة الإنسان على فرض إرادته على الآخرين، لقوة شخصيته ، وثبات جنانه ، وحسن إشارته ، وسحر بيانه .

2- السلطة الشرعية : وهي السلطة المُعترف بها في القانون ، كسلطة الحاكم ، والوالد، والقائد. وهي مختلفة عن القوة ؛ لأن صاحب السلطة الشرعية يوحى بالاحترام والثقة ، على حين أن صاحب القوة يوحى بالخوف والحذر. لذلك قيل إن سلطة الدولة في النظام الديمقراطي مستمدة من إرادة الشعب ، لأن الغرض منها حفظ حقوق الناس ، وصيانة مصالحهم لا تسخيرهم لإرادة مستبد ظالم . ومن فرض سلطانه على الناس بالقوة ، ولم يقلب قوته إلى حق ، لم يضمن بقاء سلطانه .

3- السلطة الدينية : وهي مستمدة من الوحي الذي أنزله الله على أنبيائه ، ومن سنن الرسل ، وقرارات المجامع الدينية المقدسة بقاء سلطانه .

4- سلطة الأجهزة الاجتماعية، التي تمارس السلطات السياسية ، والسلطات التربوية ، والسلطات الدينية ، والسلطات القضائية ، وغيرها .

في رواية ربيع قرطبة للكاتب والمفكر المغربي (حسن أوريد) نتلمس النزعة الإنسانية واضحة جلية في اعترافات الخليفة (المستنصر بالله) لخادمه (جوذر) وهو يبوح له بأسرار الخلافة في اللحظات الأخيرة من حياته وهو ينازع الموت إذ يقول :

« هي الدولة ، يا جوذر . أنا من لا يقوى على قتل ذبابة ، أمرت بحز رؤوس ، وألقيت بأقوام في أتون الهلاك . تيتّم أطفال ، وترملت نساء ، وتكّلت أمهات ، بسبب قرار قرّرتّه ، ورأي أبعديته ، وسياسة انتهجتها .. ولكنني لست من كان يأمر ، بل الخليفة .. هذه الأمانة التي ورثتها والتي بها حماية الدين ، وسلامة النفس وصيانة العِرض ... ويحدث ، وقد خلوت إلى نفسي ، أن أبكي بكاء الثكلى لقرار اتّخذته ، من قائد عزلته أو قريب سجنه أو متمرّد قمعته أو قتلته .. نعم ، القتل جزء من هذه الوظيفة .. هي صورتها الخليفة الفاتمة .. نعم ، نكّلتُ بمن كانوا يخالفون أمور الدولة ، ولو كنت في قرارة نفسي أرى رأيهم .. وهل ألوم من ينهض ضدّ مظلمة أو نُزع من حقّ ويسعى إليه ؟ وما إذا كان هذا الحق يتنافى وسلطان بني أمية أو يثلم شؤون الخلافة أو يتهدّد هيبة الجموع فلا أبدي جزءاً ولا يبدر مني هلع وأنا أصدر أمراً خطيراً ، فإذا خلوت إلى نفسي وقد خلعت قناع السلطان بكيت واعتزلت الناس لأيام .. »¹⁷.

اعتراف الحاكم أو أي إنسان في نهاية حياته وهو ينازع الموت يمكن عده نوعاً من التطهير . والتطهير مفهوم أرسطي (384ق . م _ 322ق . م) بلاغي ، ونقدي إنساني يعني به تنقية النفس من المآسي العالقة بها والشوائب التي واجهتها في الحياة والحروب التي شهدتها بلاد اليونان قبل الميلاد ، وقد تجلّى هذا في ملحمة الإلياذة والأوديسية بمفهوم التراجيديا التي كتبها الشاعر هوميروس، كما يتجلّى متضحاً أكثر على خشبة المسرح والدراما الفنية التعبيرية التي يتخذها الإنسان متنفساً له وهروباً من الواقع إلى حياة أفضل بعيداً عن أنظار الآخر ومعاناته))¹⁸. وتهدف نظرية التطهير عند أرسطو إلى خلق توازن نفسي للمشاهدين / المتلقّي / المتفرّج - الذي يعاني من المآسي والقلق والحزن .. ويتفاعل مع الممثل المسرحي يتخلص من هذه المآسي والحزن والقلق ، وخلق مكانها الشفقة والرحمة وتنقيته من كل النوازع الشريرة ، بهذا تعتبر المأساة وسيلة علاجية لا شعورية للإنسان¹⁹ . إذن في سياق فلسفة أرسطو فإنّ التطهير يعني تنفيس عن العواطف وتهذيبها.

وفي مقطع سردي آخر تتمثل النزعة الإنسانية في أروع صورها عندما يبوح الخليفة (المستنصر بالله لطبيبه اليهودي (شرحبيل) بمحبته له وإيمانه أن لا فرق بين دين ودين آخر أو بين مذهب ومذهب ثانٍ أو بين عرقٍ وعرق ، وأنّ النّاس سواسية وأنّ العدا لا يولد إلاّ البغضاء والكره والحقد)) ارتمى عليّ وهو يبكي ... انتفت كل الحواجز بيننا، حواجز الوظيفة، وحواجز العقيدة ، وتبدّت لنا حقيقة الحقيقة . الحقيقة بلا زخرف ولا طقوس ولا دثار ولا تمويه . وإلا ما الذي جعله يرتمي عليّ أنا من لا

يُقرِّبه أحد إلا بإذن ، ولا يُكلمه أحد إلا من وراء حجاب ؟ أدركَ أنني فهمت وأن لا جدوى من العلاج .. قُلْ له يا جوذُرُ إنني أريده لا لكي يدلك أعضاء الواهية ، بل ليقدم ذهني عن سبيل الخلاص لبني البشر كي لا يتعادوا أو يتباغضوا باسم عرق أو دين أو مذهب .. قُلْ له، إذ أفرغ من حديث، أحدثه ويحدثني في سبيل الخلاص لهؤلاء الذين يتعادون لغير جريرة ... ذاك الذي أرتجيه من شرحبيل ... هذا الطبيب الذي لم يتعفف يوماً عند خدمة ، ولم يتأفف من شفاء المعوزين والموسرين على السواء. لك يَفْش سرّاً لأحد ولا غمس في شبهة. أريد أن أراه في الدار الآخرة ، مثلك أنت أيها الخادم الودود ، يا من يؤمن بالمسيح ومريم البتول وروح القدس .. أليست الحقيقة واحدة وإن تعددت السبل المفضية إليها ؟ ولكن الناس تعمى عن الحق وتحسب الوسيلة غاية ، فتذهل إذاك عن الحقيقة⁽²⁰⁾ .

وفي مشهد مؤثر يستذكر الخليفة (الحكم) وهو على فراش الموت كيف أجهش بالبكاء على شقيقته (زينب) التي قتلت على يد الخارجين على الدولة في حادثة التمرد التي قادها أشقاء الخليفة(عبد الرحمن بن هشام) وكيف لم يتمالك نفسه وهو يشاهد شقيقته (زينب) وهي توارى الثرى فالحزن والألم ، حالة نفسية شعورية تنتاب الإنسان في حالات معينة ، فتخلق مشاعر الهلع والخوف والقلق ، يقول: ((كانت الوصيفة التي حملتني للخليفة توصيني أن أبقى رابطاً للجأش وأن لا أرسل دموعي ... تماسكتُ ما وسعني ذلك، حتى إذا أودع جثمان زينب الثرى وأهيل عليها التراب، استسلمتُ للنشيج ... كانت أختي . أختي الصغيرة التي اعتلقت رطانتها الأولى بطفولتي وبراعتها بوجداني . كنت أبكي نفسي، لأنها جزء مني. كنت أبكي وضعي ، لأنها بنت الخليفة ولقيت حتفها لأنها بنت الخليفة وكان يمكن أن أقتل معها، أو أقتل يوماً ما لأنني ابن الخليفة. كنت أبكي عجزني لأنني لم أصد عنها الموت. كان يهون علي أن أموت يوماً .. لم يواخذني أحد على بكائي .. تفهّم الخليفة الأمر وقد أُخبر بدقائق مراسم الجنازة ، بمن حضر من رجالات الدولة، وعدد من حضر، والسور التي تليت والدعاء الذي رُفِع . اكتفى بالقول وقد قصدتُ جناحه عقب صلاة الجنازة لأسلم عليه :

- ابذل وسعك أن لا تُظهر جزعك المرة المقبلة أمام الملاء يا حَكَم⁽²¹⁾ .

على الرغم من صغر عمره إلا أن والده الخليفة (عبد الرحمن بن هشام) يحرص على التأكيد عليه أن لا يُظهر جزعه أمام الملاء؛ لأنه لا يمثل نفسه ، ولا يجوز له أن يُظهر مشاعره الحقيقية خاصة في حالة الانكسار والألم والضعف أمام العامة من الناس؛ لأن في ذلك تلم لمكانته في عيون الرعية

فالحاكم ما يزال تنتظر إليه الرعية على أن الله اختصه بالخلافة وهذا ما نجده ماثلاً في شعر بعض شعراء بني أمية فهذا الأخطل يقول في عبد الملك :

أحيا الآله لنا الإمام فإنه خير البرية للذنوب غفور
نور أضاء لنا البلاد وقد دجت ظلم تكاد بها الهداة تجور²²

ويستذكر الخليفة (المستنصر بالله) بألم شديد كيف أمره والده الخليفة (عبد الرحمن الداخل) بترأس مراسم إقامة الحد على المتمردين مع قائد الجند. على الرغم من حداثة سنه وتردده عن حضور هذه المراسم إلا أن إصرار والده الخليفة أجبره على ترأس مراسم إقامة الحد يقول :

((ما أن فرغ الخليفة من الصلاة ، حتى عاد من ذات السبيل وسط الهتافات وهو يرد بيديه ، ويومئ برأسه إلى أن دخل القصر ... علقت تلك الأحداث بذهني فلم تفارقه قط .. علقت به لأنني أمام أول تمرين أجتازه في هذا اللقب الذي أحمله ، ولي العهد ، والرسالة التي تنتظرنني ، خليفة المسلمين ... نُزعتُ من طفولتي مذ قُتلت زينب . هتف وصيف ونحن في ردهة القصر :

- ليتقدم ولي العهد إلى السدة العالية بالله ، خليفة المسلمين ..
- أمسكني فتى من يدي، وأخذ يعدو بي إلى أن مثلت أمام الخليفة فأرسل بتوذة نحو قائد الجند :
- سيقام الحد على المتمردين غداً في الساحة الكبرى قرب المسجد الأعظم ؟
- ثم استدار نحوي في هدوء :
- وسترأس يا حكم مراسم إقامة الحد على المتمردين مع قائد الجند .

قبل قائد الجند الأرض ودفعني الوصيف الذي كان ممسكاً بيدي أن أفعل ذات الشيء ... كنت أود أن أقول شيئاً لهذا الرجل الذي هو أبي كما قد يفصح كل طفل لأبيه. ألم يكن هو من احتضني في جناح والدتي وبكى لبكائي، ولكنه لم يكن نفس الشخص. رجالات الدولة المتعلقون حوله، الجنود المحيطون به، بسيوفهم ورماحهم وأسنتهم ، لباس الأبهة الذي يتشح به، كل ذلك أحاله شخصاً آخر. كنت أريد أن أقول له: لا أريد أبتاه. لا أقوى على منظر الدم وحزّ الرؤوس. ولكن الشخص المائل أمامي لم يكن أبي ، بل الخليفة الذي يريد أن يلقي في روع الناس استمرارية الدولة في شخصي . الخليفة الذي يسلمني المشعل، ويقود خطاي في سرايب الحكم ، ويعلمني أسرار المهنة ... هو نفسه عاش تجربة مماثلة في صباه. ألم يقتل أبوه من قبل عمه وهو طفل، وهياه جده للرسالة وأخذ نفسه على ذلك ؟ حرم عبد الرحمن من الطفولة ومن الأبوة ليتهيأ لأمر الخلافة ((

تتصارع في نفس (الحكم) نزعتان : الأولى النزعة الإنسانية السوية التي ترفض القتل وسفك الدم والثانية النزعة الشاذة للسلطة ، وهنا يبهر (الحكم) فعل والده معه من إصرار على ترأس مراسم

عملية إقامة الحد على المتمردين على الرغم مما فيها من بشاعة؛ إذ يرى أن فعل والده الخليفة هو جزء من ثقافة الحاكم التي يستلزم المران عليها قبل تسلّم مقاليد الحكم فالخليفة أراد أن يلقي في روع الناس استمرارية الدولة في شخص الخليفة الذي يستلم المشعل، ويقود خطاه في سراديب الحكم ، ويعلمه أسرار المهنة . وما فعله والده معه فعله جده معه بعد قتل والده من قبل عمه كي يتهيأ لأمر الخلافة . إذن هناك صراع بين الجانب الإنساني والجانب السلطوي في نفس (الحكم)، لكن لا يوجد تناقض من منظور السلطة، النزعة الإنسانية من منظور اعترافاته إحداهما تكمل الأخرى .

يكمل الخليفة حديثه مع خادمه (جودر) قائلاً²³: ((ينبغي أن أحدثك عنهما ، ولكن دعني أكمل الحديث عن مراسم إقامة الحد .

لم يكن أن أتصل عن ذلك ، وكان الخليفة يدرك ذلك، ولذلك هياً كل شيء . يوم إقامة الحد، انبرت القهرمانه من وراء الجموع ، وأمسكتني بقوة من يدي ، ثم انفلتت بي بسرعة نحو باب موارد مع قائد الجند. نظرت إليها ثم همست :

- قمر، لا أريد .

- مولاي ، لا بدّ مما ليس منه بدّ. هي أوامر الخليفة، وهو أدري بأمور الدولة وأنت ولي عهده. أخذتني إلى باب القصر المفضي إلى الساحة الكبرى وقائد الجند يتقدمنا . كنت أعرف عطفه علي. عند الباب، أرسلت الوصيفة على أثري:

- مولاي، تنظر إليك، وترى فيك صورة الخليفة .

- قبلتني على رأسي ثم توارت. نظر إلي قائد الجند ثم أرسل مشيراً إلي بالتقدم :

- على إثركم يا مولاي .

قلت وجلاً :

_ لا أريد .

ردّ ببرودة :

هي الأوامر، يا مولاي، هم من قتل الأميرة زينب .

عرف الخليفة حداثة سني ورقة فوادي، وعهد من أجل ذلك بالوصيفة أن تفارقني، ولقائد الجند أن يستجد بذكري زينب كي يستثيرني، ولكني لم أكن في وضع من يريد الشار ... ووجدتني فجأة وسط الجموع، في الساحة الكبرى ... قرأ قاضي المدينة صكاً يُذكر فيه حكم المفسدين في الأرض. كان المحكومون محتبين وأيديهم مكبلّة ، ومن ورائهم القاضي ، وعلى رؤوسهم كان يقف السياف شاهراً سيفه . نظرت إلى وجوههم فلم أجد قاتل زينب. لم يبدر من المحكومين الجزع. همست إلى قائد الجند :

_ أرجوك، لا أريد .

ولكنه تحوّل هو نفسه إلى شخص آخر :

_ هي الأوامر يا مولاي .

حينما أنهى القاضي مقالته، رفع أحد المتمردين عقيرته محدثاً إياي :

_ يا حكم، لسوف نلقى الله بعد حين، انكر يا حكم أننا ما تُرنا إلا نصرة للحق وانتصاراً

للضعفاء ... وسنلقى الله راضين، مرضيين إن شاء الله .

دفعه جندي بركبته .. وأغمضت عيني. لم افتحهما إلى أن سمعت نداء (الله أكبر) يتردد،

ونظرت فألفيت رأساً مدحرجاً على الأرض .

وتوالى ذات الأمر على الآخرين .

منذ ذلك الوقت، أدركت أنني مختلف عن حولي .. كنت موتوراً لفقد أختي ، وأضحيت موتوراً

لفقد طفولتي. وكان ذلك ما يرده الخليفة .. كنت كمن بُتر منه عضو. كانت الحاشية تدرك ذلك،

وتتعامل معي كمن تعرّض لبتر إلى أن يبرأ من جرحه .

ولكني لم أبرأ من جرحي . ينزّ دوماً من نفسي. أبكي زينب، وأبكي طفولتي التي بترها السيّاف

من الرؤوس التي حرّها ... ((24).

في هذا المقطع تتجلى النزعة الإنسانية في أعلى صورها عند (الحكم) وهو يعترف أمام خاده

(جودر) عن لحظة تنفيذ إقامة الحد على المتمردين وكيف خاطبه أحدهم قبل تنفيذ الحكم عليه وعلى

رفاقه وتذكيره بأنهم ما ثاروا على السلطة إلا نصرة للحق وانتصاراً للضعفاء وأنهم سوف يلاقون الله

راضين مرضيين. في هذا الاعتراف يظهر لنا جانباً إنسانياً في شخصية الحكم وهو إيمانه بقضية

المتمردين في قرارة نفسه، فتورة المتمردين ما كانت إلا نصرة للحق وانتصاراً للضعفاء.

الخاتمة :

تأسيساً على ما تقدم يتضح لنا:

1- أن الروائي ومن روايته (ربيع قرطبة) أراد أن يظهر الجانب المأساوي فقط في حياة

الخليفة (الحكم) ليؤكد أنه إنسان؛ لأن الإنسان الذي لا يحزن وفق مقولة أرسطو لا يصلح أن يكون

عنده تطهير وفكرة التطهير في الحزن فقط لا توجد في الضحك أو الملهاة والإنسان الذي يحزن ويتعب

هو الذي يتطهر حتى يدخل الجنة .

3- اعتراف الخليفة (الحكم) نوع من الاعتراف التطهيري في حياته، كالذي يغتسل بالماء كما عند

المسيحيين اعترافات القديس أوغسطين .

4- إن الخليفة (الحكم) لم يعيش طفولة بريئة؛ بل عاش طفولة مدنسة، صراع بين الجانب الإنساني

والجانب السلطوي ولا يوجد تناقض من منظور السلطة .

- 5- النزعة الإنسانية والأطر السلطوية من منظور اعترافات الخليفة (الحاكم) إحداهما تكمل الأخرى والدليل أنه يعيش السلطة ويتكلم على ضمير إنسان .
- 6- تعمد الروائي أن يتكلم عن جوانب إنسانية في حياة الخليفة (الحكم) ولم يجعلها كلها سلطوية وقوة والهدف من ذلك مدح الخليفة (الحكم) لا ذمه ، أراد أن يقول أن الحاكم الذي يستعمل القوة هي شاذة عن النزعة الإنسانية لكن ليست النزعة الإنسانية هي الشاذة في مسيرة حياته، المدنس هو الشاذ .
- 7- المعروف عندنا أن السلطان الحاكم إنسان متسلط ، الشاذ عنده إذا التفت لفتة إنسانية مثل بعض الملوك والأمراء عندما يجالسون بعض الناس البسطاء؛ أي لا يوجد جانب الهي .
- 8- السلطان الذي يريد أن يحقق طموحات شعبه وربيع دولته يجب أن يتمتع بميزتين : قوة سلطوية ونزعة إنسانية. فالإنسان الناجح هو الذي يمتلك زمام هاتين الميزتين. وهذا الإنسان الناجح هو الذي أطلق عليه المفكر الاسلامي (محمد عبده) تسمية (المستبد العادل) التي طرحها في كتابه المسمى بهذه التسمية .
- 9- طالما يعترف بأدوار سلبية هو إنسان عادل لديه الشجاعة للاعتراف بأخطائه . يريد الروائي أن يقول أن هذا السلطان عمل لنفسه مراجعة دليل على أنه إنسان ناجح .
- 10- الربيع أعلى درجات السيطرة والقوة، ربيع قرطبة حقبة الرخاء والقوة وهو ما أراد أن يوصله الكاتب والمفكر (حسن أوريد) للمتلقي في روايته ربيع قرطبة .

الهوامش وقائمة المصادر والمراجع :

- 1 السيرة النبوية لابن هشام ، ط2، مصر ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، 2/ 603.
- 2 المصدر نفسه والصفحة نفسها .
- 3 كتاب المحن، محمد بن أحمد التميمي ، تحقيق : يحيى وهيب الجبوري، ط5، دار الغرب الإسلامي ، 2021 ، 317.
- 4 نهج البلاغة، علي بن أبي طالب، تحقيق : صبحي الصالح ، دار الكتاب المصري - القاهرة ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، 3 / 84،
- 5 النزعة الإنسانية في الثقافة العربية طبيعتها ومظاهرها، رائد سهيل الحلاق ، جامعة البعث حمص ، مجلة حوليات التراث ، عدد 16 / 2016 ،
- 6 موسوعة التراث الفكري العربي الإسلامي، محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1998 ، 447 - 448 .

- 7 النزعة الإنسانية في الثقافة العربية طبيعتها ومظاهرها ، رائد سهيل الحلاق، مجلة حوليات ، العدد 16 ، 2016م .
- 8 ديوان عمر بن كلثوم التغلبي ، أيمن ميدان ، ط1 ، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة ، 1992م ، 50
- 9 جمهرة وصايا العرب ، دراسة وتحقيق : محمد نايف الدليمي ، ط1، دار النضال ، 1991 ، 256 /1
- 10 جمهرة وصايا العرب . 87.
- 11 المصدر نفسه ، 1 / 145.
- 12 لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، دار صادر - بيروت ، 1970 ، مادة (سلط) .
- 13 ينظر: السلطة ، حسن البحري ، الموسوعة القانونية المتخصصة ، 2000م.
- 14 السلطة ، حسن البحري .
- 15 علاقة العمل والخدمة الاجتماعية - العمالية ، أحمد زكي بدوي ، دار الجامعات المصرية الإسكندرية ، 1987 ، 56.
- 16 المعجم الفلسفي، جميل صليبا ، الشركة العالمية للكتاب - بيروت ، 1994 ،
- 17 ربيع قرطبة ، حسن أوريد، ط1، منشورات المركز الثقافي العربي ، 2017 ، 12.
- 18 مفهوم التطهير في اللغة والأدب ، عبدالله الزياني ، مقال منشور بتاريخ 12/ يوليو / 2019 ، منتدى العمق، al3omk.com
- 19 المصدر نفسه .
- 20 الرواية ، 13 - 14 .
- 21 الرواية ، 23 .
- 22 شعر الأخطل ، صنعه السكري ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط2، 1979م ، بيروت ن دار الآفاق الجديدة . 404.
- 23 الرواية ، 33.
- 24 الرواية ، 25 - 28 .